الصورة البيانية عند ابن خفاجة الأندلسي

م. م. خلف محمود حسين
جامعة تكريت / كلية التربية

المقدمة:

حياته وأدبه:

هو ابراهيم بن ابي الفتح عبد الله بن خفاجة الهواري الشُقري الاندلسي ولد بجزيرة (شقر) وهي بليدة بين (شاطبة) و (بلنسبة) شرقي الاندلس سنة (٤٥٠هـ) وتوفي سنة (٥٣٣هـ)[١] وشقر من مدن الاندلس الجميلة لذا كان لها تأثير في تكوين شخصيته وقوة خياله الشعري وقد وصفها ياقوت بأنها ((انزه بلاد الله واكثرها روضة وشجراً وماءً)) وقال عنه المقري (اديب الاندلس وشاعرها)[٢] وهو من الشعراء المخضرمين اذا ادرك عهد ملوك الطوائف والمرابطين في الاندلس وهي ازهى عصور الاندلس فقد قامت دولة الادب والشعر وغصت مجالس الامراء بالشعراء، وطرق شاعرنا اكثر الاغراض الشعرية من المدح والعتاب والرثاء والشكوى والغزل وكان ولعه الاكبر في الوصف وهو اكثر شعراء الاندلس اهتماماً بهذا الفن، وكرس حياته للشعر بعيدا عن السياسة حتى اصبحت الطبيعة شغله الشاغل في كل قصائدة.

وقد شكل الوصف عنده مساحة كبيرة كما هو حال شعراء المشرق مثل ابن المعتز وابي بكر الصنوبري وابي تمام والبحتري اذا كانوا يكثرون من في قصائدهم من التشبيهات والاستعارات والكنايات بشكل واسع، وشعر التأمل يحتاج الى ادوات قد لاتتوفر عند الشعراء السابقين منها قوة الخيال وتعميق الوصف والتغلغل وراء صوره الجمالية.لذلك عندما يصف ابن خفاجة القمر لم ينظر اليه نظرة حيه فحسب بل يغوص في اعماقه ويتجاوز حدوده الواضحه،كذلك في وصف الجبل والرياض والازهار وغيرها.فالطبيعة عند ابن خفاجه هي كل شيء فقد شغف بها ومزج روحه بروحها وبادلها الشعور والاحساس

وكان يتحدث اليها كما يتحدث الى شخص ذي حياة . واكثر من صيغ شعره بألوان البيان والبديع من استعارات وتشبيهات وجناس وطباق كذلك له قطع نثرية.

١. الصورة التشبيهية.

ان التشبيه عند ابن خفاجه له اهمية كبيرة لانه يتردد على كل شفة ولسان ويستخدمه العالم والاديب، وقال عنه قدامة بن جعفر (انه اشرف كلام العرب وفيه تكون الفطنة والبراعة)[٣]. وهنا نريد ان نتحدث في هذا المبحث الصغير عن عمق الصورة البيانية بعدما تعرفنا عن اشهر شعراء عهد الطوائف في الوصف والبيان وتجربته الشعرية المشحونة بالاحساس والعاطفة. والبيان كما عرفه الجاحظ (اسم جامع لكل شيء كشف لك المعنى وهتك الحجاب دون الضمير)[٤] كذلك يذكر الجاحظ ان الشعر جنس من التصوير[٥] لذا نجد بعض فلاسفة المسلمين حاولوا الاقتراب من اعطاء تعريف الصورة من خلال استعمالهم للمحاكاة بمعنى القدرة على التصوير، وتشبيههم الشعر بالرسم[٦] ومن كل هذا يمكن القول ان الصورة تشكيل لغوي يكونها خيال الفنان من معطيات متعددة يقف العالم المحسوس في مقدمتها فأغلب الصور مستمدة من الحواس الى جانب مايمكن اغفاله من الصورة النفسية والعقلية[٧] لذا يمكن ان نقول ان الصورة ترتكز على عناصر التشبيه والتمثيل والاستعارة.

ولكون التشبيه اسلوب من اساليب التعبير للشاعر وغيره لذا وجبت دراسته في هذا المبحث دراسة عميقة.

فالتشبيه معنى من المعاني له حروف واسماء تدل عليه ويأتي بطرق متعددة واطراف متباينه والوان كثيره وتراكيب جمة واوجه محدده للقريب والبعيد والمفرد والمركب والحقيقي والخيالي[٨]. ومن كل هذا لايستطيع الاديب ان يتخلى عن التشبيه فهو يزيد أدبه روعة وجمالاً ويضفي على عبارته عذوبه ورشاقه. لهذا يعده قدامه بن جعفر من اشرف كلام العرب، وفيه تكون اللفظة والبراعة عندهم وقد استخدمه شاعرنا ابن خفاجة في كثير من اوصافه وغزله وكل اغراضه الشعريه التي وجدناها في ديوانه ومنها هذه المقطوعه التي يرد ان يرسم من خلالها صورة لزهرة تنشر شذاها ليلاً وسط حلكة الظلام.

يقول فيها:

وخَيريةٍ بين النسيم وبينهـا حَديث اذا جن الظلام يطـيبُ
لها نفس يسري مع الليل عاطرٌ كأن له سراً هناك يريــبُ
يدبُ مع الامسـاء حتى كأنما له خلف استار الظلام حبـيبُ
ويخفى مع الاصباح حتى كأنما يظل عليه للصباح رقيــبُ(٩)

فهنا نلاحظ ان ابن خفاجه قد رسم لنا صورة رائعه عن هذه الزهرة التي تبث عطرها تحت جنح الظلام فيبدو وكأن هناك مناجاة بين النسيم والزهرة وحب متبادل مع حركة الريح لينقل شذاها بين تلك الربوع الجميلة.

وهنا استخدم التشبيه في احسن صوره والوانه والزهرة هي (المشبه) وشذاها الفواح الذي يسري مع النسيم في رواحه وغدوه والذي سماه الشاعر (نفس) هو (مشبه به) والنفس متولد من حركتي الشهيق والزفير وشبه الشاعر ان الزفير يدب مع الامساء أي ان الزهرة تفتح فاها مساءً ليفوح عطرها لتعطيه لمن تحب خلف استار الظلام ثم مايلبث هذا العطر طويلاً حتى اذا جاء الصباح اختفى واصبح في حالة صمت وكأن عليه رقيب وهذه الحالة حالة الشهيق لتجمع الهواء ثم تبثه في ليلها القادم.

وهذه الحركة حركة (النفس) عند الزهرة معبرة عن رياض وحدائق الاندلس وطبيعتها الساحرة.وهي صورة متكاملة تعبر في مضمونها عن حب يتمناه الشاعر لنفسه. (ووجه الشبه) انتشار شذى هذه الخيرية خلف استار الظلام حاملاً معه عطراً جميلاً يوزعه بين الانام ويستمر في هذه الحالة حتى مجيء الصباح منتظراً ليله القادم. ثم يبدأ بوصف لوحة اخرى لااراكة ويُدخل بها مظاهر الطبيعة وسحرها، لذلك يمكن ان نقول امتاز ادب ابن خفاجة باستقلال وصف الطبيعة وكان يكثر من وصفها ولم يكف بوصف الطبيعة كصورة واحدة بل اخذ كل مظاهرها وادخلها في جميع اغراضه الشعرية في المدح والفخر والرثاء وغيرها.وقد اختلف كثير من الادباء في تحديد فن الوصف وتعريفه وقالوا عنه انه فن من الفنون الشعرية له اسلوب وتعابيره ومواصفاته لكن هناك من قارن بين الوصف والفنون البيانية من الاستعارة والتشبيه والكناية وكأنه من قبيلها. لذا يشير ابن رشيق الى الفرق بين الوصف والتشبيه قائلاً (الفرق بينهما ان الوصف اخبار عن حقيقة

الشيء وان التشبيه مجاز وتمثيل)[١٠] ومن اجمل تشبيهات ابن خفاجة وهو يصف هذه الشجرة الكبيرة وظلها وجدول ماء لفت حوله الازهار في تلك الروضة الجميلة التي يدار بها الراح. يقول:

١- وأراكــة ضــربت ســماء فوقنــا تنــدى وأفــلاك الكــؤوس تُــدارُ
٢- حفــت بــدوحتها مجــرة جــدول نثــرت عليــه نجومهــا الازهــارُ
٣- فكأنهــا وكــأن جــدول مائهــا حســناء شــد بخصــرها زنــارُ
٤- رف الزجـاج بهـا عـروس مدامـةُ تجلــى ونــوار الغصــون نثــارُ
٥- فـي روضـةً جنح الدجى ظلاً بها وتجســمت نــوراً بهــا الانــوارُ
٦- نـام الغبـار بهـا وقـد نفـح النـدى وجــه الثــرى واســتيقظ الــنوارُ
٧- والمـاء فـي حلـيٍ الحبـاب مقلـدٌ زرت عليــه جيوبهــا الاشجــار[١١]

في البيتين الاول والثاني تشبيه تمثيل لان وجه الشبه متولده من امرين او من امور كثيره بطريقة مركبة.فالمشبه هي الارائكة والمشبه به جدول ماء يعكس صورة السماء في نجومه ومجرته وكأنها ازهار منثورة وسط الجدول ووجه الشبه صورة حاصلة من ازهار منثورة كالنجوم في وسط السماء وتحت اديم السماء تدار كؤوس الشراب للمتعة والراحة ثم ينتقل الى البيت الثالث الى التشبيه المرسل المجمل الذي حذف منه وجه الشبه وهذا يدعو الى التفكير والتأمل اذا جعل الشاعر المشبه مماثلاً للمشبه به وهذا يفسح المجال للتخيل والتصور لتقدير وجه الشبه والذهاب في تقديره كل مذهب.فضلاً عن ان هذا النوع من التشبيه هو من التشبيه الملفوف اذا المشبيهات جاءت في جهة والمشبهات بها جاءت في جهة اخرى اذ قال:

فكأنها وكأن جدول مائها حسناء شد بخصرها زنارُ

فالمعنى: فكأن تلك الاراكه حسناء وكأن جدول مائها زنار شدٌ بخصرها فقد جاء التشبيه ملفوفاً والمستمع المخاطب والذي يُرجع كل مشبه الى مشبه به اذ انه جعل من هذه الاراكة وجدولها التي تحفه الازهار كامرأة حسناء ومما زاد جمالها انها شدت على خصرها

زنار وهو نوع من الوشاح محلى بألوان عديدة كألوان الزهر المنثور على جدول الماء. وهذا مما زادها حسناً وبهاءً.

وفي البيت الرابع يجعل المشبه والمشبه به في عناق متحدين وهو تشبيه مؤكد مجمل اذا انه شبه الزجاج بعروس من المدامة ووجه الشبه هو الصورة الحاصلة من شعاع هذه المدامة داخل كؤوس الزجاج والغصون المتناثرة نورت من هذا الشعاع فرحاً به.

وفي البيت الخامس شبه الروضة أي روضة الورد كجنح الليل أي شبهها بشدة خضرتها (تميل إلى السواد) والمشبه بها ظلها أكثر سواداً ولكنها هي الاخرى أي الانوار تجسمت بها وأضاءت ووجه الشبه منتزع من شيء شديد الخضرة وظله اسود لكثافة الخضرة التي انتجت هذا الظل ووسطه تجسمت الانوار.

وفي البيت السادس شبه الغبار بانه نام لكثرة الندى ونفحه على شكل رذاذ على وجه التراب والمشبه به من هذا التركيب هو تصدع هذا الثرى وخروج النوار مورقا نضراً مفتحا ووجه الشبه من كل هذا الصورة المركبة هو هطول الندى على اديم الارض ومن ثم خروج النوار والخضرة. وهذا تشبيه مؤكد مجمل.

ثم في البيت الاخر يشبه الماء في حباب الخمر مقلد أي صار كالعقد وجاء المشبه به بوصف هذا الماء في جيوب اوراق الاشجار بنفس الصورة ووجه الشبه منتزع من ترابط حبيبات الماء مع بعضها لتعطي الناظر صورة ابهى واجمل وهذا من احسن انواع التشبيه وهو المؤكد المجمل من حيث حذف الاداة وحذف وجه الشبه إذ جعل المشبه هو المشبه به وحذف وجه الشبه ايضا يجعلك تحار في تقديره فتذهب كل مذهب وتقدر مظنونات كثيرة ومن ثم ينتقل ابن خفاجة من وصف الطبيعة إلى وصف حصانه الاشقر بصورة تشبيهية رائعة كما في قوله:

واشـــقر تضـــرم منـــه الـــوغى ... بشـــعلة مـــن شـــعل البـــاسِ
مـــن جلنـــار ناضـــر خـــدّه ... وآذانـــــه مـــــن ورق الآسِ
تطلـــع للغـــرة فـــي وجهـــه ... حبابـــة تضـــحك فـــي كـــاسِ[١٢]

في البيت الاول شعل الباس، اصله باس كالشعلة فقد جاء من اضافة المشبه به إلى المشبه نحو لجين الماء أي (ماء كاللجين)، ونحو (ثوب العافية) اصله (عافية كالثوب) والمعنى ورب اشقر يضيء منه الوغى (عجاج المعركة الذي كالظلام يمنع الابصار) فهذا الحصان يضرم الوغى بشعلة ليس من نار لكنها شعلة البأس والقوة، فناضر خده من جلنار أي كالجلنار وآذانه من ورق الآس أي كالآس فالمشبه به مجرور بـ(من)، وعندما يصف الشاعر حصانة مستخدما الوانا من التشبيه المعروفة فقد شبه حصانة يوم الوغى بشعلة من شعل الباس وكأنه يضرم النار بسنابكه عندما تطأ الارض وهذا مظهر من مظاهر القوة والرهبة ووجه الشبه هو صورة مركبة للقوة والعزم حتى كأنه شعلة من نار في خفته وجريه المسرع، ثم ينتقل إلى تشبيه خده بالورد الاحمر الداكن وآذانه من ورق الآس المدبب كرؤوس الحراب والغرة في جبينه كحبابة الخمر وسط كأس ومما زادها جمالاً انها تضحك إذ تخرج ثناياها بيضاء زيادة في التشبيه لهذا يكون وجه الشبه من صورة مركبة من عدة الوان هي تشبيه الخد بالورد والآذان بورق الاس والغرة حبابة خمر وسط كأس وهكذا تكون كل هذه المشبهات من الطبيعة، وجمع في هذا التشبيه الصورة واللون معاً وهذا تشبيه يسميه عبدالقاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) بالتشبيه غير التمثيلي ان يكون الأمر به بين لا يحتاج إلى تاويل وان الشاعر هنا استخدام موجودات الطبيعة فأجاد الوصف التشبيهي لحصانة مستعيناً بهذه الموجودات.

ان ابن خفاجة استعان بالتشبيه لاثراء صوره الشعرية وقرنه بما يماثله من واقعه الحسي والعالم المحيط به فجاءت معظم تشبيهاته بألفاظ الطبيعة المؤثرة التي تحكمت في رسم الصورة مما اعطاها بعداً جمالياً اثبت الشاعر قدرة خياله وقوة بيانه فيها.ولهذا لم يمل ابن خفاجة عن الوصف حتى في موقف الرثاء والبكاء،ومزج البكاء بوصف رائع يلائم مقتضى الحال فشبه الدموع الجارية على الخدود كمياه الانهار وشبه حال ابدان المحزونين المضطربة بهزة الاغصان وانينهم، واجهاشهم بالبكاء بصوة قنبرة نائحة كما في قوله:

في كل ناد منك روض ثناء ولكل ويكل خد منك جدول ماءِ

شـــخص هـــزة الغصـــن النـــدي غَـــب البكـــاءِ ورنـــة المـــكاءِ
جالـــت بطـــرفي للحبابـــة عبـــرةٌ كـالغيم رق فجـال دون سـماءِ[١٣]

فـي هـذا التشـبيه المؤكـد المجمـل الرائـع باسـلوب تجتمـع فيـه قـوة الخيـال وسـعته وسلاسـة العبـارة ودقـة التعبيـر اذ يصـبح المشـبه هـو المشـبه بـه وهنـا يسـتخدم الشـاعر فـن الرثاء بوصف الطبيعة حين رثى الوزير ابا عبدالله ابن ربيعة حين قال:

في كل نـاد منك روض ثنـاء وبكل خد منك جدول مـاء

المعنى: في كل نادِ ثناء كالروض عليك،وعلى كل خدً ماء (دمع) كالجدول في غزارتـه.نلاحظ اولاً ان الشـاعر استخدم الطبيعـة ومظاهرها حتـى فـي الرثـاء هنـا فقد ذكـر النـادي والـروض (جمـع روضـه) والخـد، (وجـدول المـاء) فكـل هـذه المظـاهر اسـتخدمها الشاعر ليصنع لنا مايريد بثه من همومه ضمن وصف الطبيعة ونلاحظ ثانياً ان الشاعر اسـتخدمه فـي هـذا الوصـف لـون مـن الـوان التشـبيه يعـرف عنـد اهـل البلاغـة بـ(التشبيه المجمل المؤكد) وهو الذي حذفت فيه الادارة ووجه الشبه فضـلاً عن ان الشـاعر عندما اراد المبالغة في الوصف قلب تركيب التشبيه فأضاف المشبه بـه الـى المشبه (روض ثنـاء) أي ثناء كالروض و(جدول الماء) أي ماء كالجدول،فالشاعر عندما اراد المبالغة في الرثاء جعل الثناء الذي يطريه اهل النادي على المرثي كأنه الروض فقال (روض ثناء) أي ثنـاء كالروض ثم قال (بكل خد جدول المـاء) أي علـى كل خد (دمـع) كأنـه جدول من المـاء فهذا التعبير وهذا الاسلوب الممزوج بأشكال الطبيعـة والوان التشبسه الرائعـة لـم تـرد عند غيره من الشعراء وبهذا الدرجـة من الاستخدام الرائع والنظم المتين والوصف الجميل ومن خـلال هذه القصيدة البس الشاعر الطبيعـة همومـه وآلامـه وقد شبه النـادي بروضـة جميلـة وكل خد شبه بجدول مـاء مبالغـة فـي البكـاء ووجـه الشبه صـورة منتزعـة لتقـارب المشـبه والمشبه به مما يفسح الخيال لتصور هذه الصفات مع شيء من المبالغة في الوصف ثم ينتقل في البيت الثالث الـى التشبيه المرسل المجمل اذ يذكر الاداة ويحذف وجـه الشبه

ليكون تفسيره بضرب من التأويل للوصول اليه فيوحي في تشبيهه لعبرة الصبا والشوق بين حدقة عينيه كالغشاوة او كالغيم الخفيف وكأنه يريد من وجه الشبه امتلاء حدقة العين بغشاوة من الدمع كما هي غشاوة الغيم الرقيق الذي تأخذه الريح يميناً وشمالاً وهي صورة منتزعة من انزال الدموع من العين حتى بدت غشاوة على عينيه بقدر ماانزل هذا الغيم من مطر فبقي غيماً رقيقاً كالغشاوة التي يريدها الشاعر.

ثم ينتقل ابن خفاجة ليصف سواد الليل في بيتين اذا يمزج الالون في وصف الليل بصورته الحالكة لشدة ظلامها.وفي داخل هذه اللوحة المظلمة هناك برق خافق وشرار متطاير من وسط ذلك الغمام كما جاء في قوله:

وليل كما مد الغراب جناحهُ وسال على وجه السجل مدادُ
به من وميض البرق والجو فحمهُ شرار ترامى والغمام زنادُ(١٤)

في هذا التشبيه الرائع لحلكة الليل جاء تشبيه الليل كجناح غراب امتد في الافق ليغشى الافق كله بسواده القاتم ثم يركب على هذه الصورة صوره اخرى وهي كما يسيل المداد على السجل الابيض فيمحو ذلك البياض ويرسم صورة سوداويه اخرى بتركيب حسي ليكون وجه الشبه منتزع من صور مركبة قاتمه،وبه (الضمير يعود الى الليل) من وميض البرق شرارُ ترامى (قطع صغيرة من النار) حال كون الجو فحمه (من السواد) والغمام زناد أي شبه الزناد الذي يقدح بعضه ببعض ليخرج لنا هذا الوميض او الشرر الذي يترامى فهنا تشبيهان مؤكدان مجملان هما (الجو فحمه) و(الغمام زناد) ولكن مايلبث حتى يفك هذا الظلام بوجود عنصر مضيء متأتي من اصطدام الغمام مع بعضه وكأنه زناد يقدح في عنان السماء ليطرد هذا الظلام ولكنه طرد مؤقت اذ سرعان ما يخيم هذا الظلام ثانية، ففي هذا التشبيه الرائع واضح المشبه والمشبه به ولكن وجه الشبه هو مركب لصورة متولدة من امرين او اكثر لذلك يعده اهل البلاغة تشبيه مفرد لان وجه الشبه فيه صفه مفردة ويسمونه ايضاً تشبيه الجمع، لانه مثل الليل في سواده كجنح الغراب، والمراد على السجل (بجناح السواد كله)لذا جاء المشبه واحد والمشبه به متعدد واضاف تركيب اخر هو سواد الجو كالفحم الذي جاء من تركيب حسي وهو وميض الجو

من تراكم الغيوم واصطدامها مع بعضها جعل لها قدح كقدح الزناد الذي يصنع الشرار وهنا يظهر خيال الشاعر وقدرته الفاعلة في رسم منظر من مناظر الطبيعة بصياغة فنية رائعة.

ومن تشبيه التسوية ابدع ابن خفاجه لنا صورة اخرى او لوناً اخر من الوان التشبيه اذا جاء بمشبهات كثيرة ممزوجة مع بعضها منها عقليه وحسيه ليخرج بوصف يلائم قوة السيف وبتره يوم الروع كما في قوله:

فما السيف يوم الروع نبهت نصلهُ فأضرمته ناراً وضرجته دما
بألين اعطافاً واخشن مضرباً وارهب اقداماً واجرى تخدما[١٥]

في هذين البيتيين عدة مشبهات لمشبه واحد وهو عند اهل البلاغة مايسمى بالتشبيه التفضيلي أي تعدد المشبه به دون المشبه لذلك يشبه الشاعر السيف يوم الروع أي يوم اللقاء بتقوية نصله اذ جعله كالنار بقوة بتره ولطخه بالدماء تيمنناً انه يظفر بالعدو والين اعطافاً أي مرن ذا منعطف حاد واقوى مضربا وارهب في اقدامه لمقارعة العدو وفتكه به. وهذه كلها مشبهات تدل على قوة السيف ورهبته. ثم ينتقل الشاعر الى وصف الروض بعد هطول المطر وحركة الطيور وتغريدها اذ يجعل مشبهات اربعة لوصف الروض يقول:

ولا الروض غب القطر فضضهُ الندى ورجع منه طائر فتكلما
بأطيب افياءً وانضر صفحة واعطر اخلاقاً واحلى ترنما[١٦]

في هذه الصورة الرائعه لوصف الروض بعد نزول المطر اذا ترك عليه قطرات من الماء كالفضه في جمالها، (ورجع) والترجيع صوت الطائر واضاف ان هذا الصوت كأنه كلام مفهوم يعبر عن جمال الطبيعة وسحرها الخلاب وهنا المشبه واحد وهو الروض والمشبه به متعدد وهي نضارة ظله، وفواح شذاه، وترثم طيوره وهي مركبات حسيه وعقلية مزجت مع بعضها لاعطاء صورة متكاملة لوصف الروض. ويعدونه اهل البلاغة تشبيه الجمع اذ نرى ان المشبه واحد وهو الروض ولكن صورة المشبه به متعددة. فهو اطيب

افياء، وانضر صفحة واعطر اخلاقاً،واحلا ترنماً.لذلك تعد الطبيعة هي كل شيء عندة ابن خفاجه فقد شغف بها ومزج روحه بروحها وبادلها الشعور والاحساس وتفنن في استحضار الصور والالفاظ والتشبيهات الحسية والعقلية وتركيبها مع بعضها.

الصورة الاستعارية:

يرى كثير من الدارسين ان الاستعارة تمثل طور النضج والدقة الفنية وقوة التصوير وبعد الخيال[١٧] ومن هنا تبدأ اهمية التركيب الاستعاري يقول عبد القاهر الجرجاني في تعريفها (ان يكون لفظ الاصل في الموضوع اللغوي معروفاً تدل الشواهد على انه احتفى به حين وضع،ثم يستعمله الشاعر او غير الشاعر في غير ذلك الاصل وينقله اليه نقلاً غير لازم[١٨] ولنقرأ قصيدة الشاعر الذي احب الطبيعة وكان شاعرها الاول،ومن قصيدته في (القمر) التي اثارتها في نفس غربته بعد موت اخوانه حيث اخذ الدورة التي تعتري القمر بالنقصان والكمال والاختفاء والظهور كما جاء في قوله:

لقد اصخت الى نجواك من قمر ... وبت ادلج بين الوعي والنظر
لأجتلي لمحاً حتى اعي ملحا ... عدلاً من الحكم بين السمع والبصرِ
وقد ملأت سواد العين من وضح ... فقرط السمع قرط الانس من سمرِ
فلو جمعت الى حسن محاورة ... حزت الجمالين من خبر ومن خبرِ
وان صمت ففي مرآك لي عظة ... قد افصحت لي عنها السن العبرِ
تمر من ناقصاً حوراً ومكتمل ... كحوراً ومن مرتق طوراً ومنحدر
والناس من معرض يلهو وملتفت ... يرعى ومن ذاهل ينسى ومدكر
تلهو بساحات اقوام تحدثنا ... وقد مضوا فقضوا –انا على الاثر
فأن بكيت وقد يبكى الجليد فعن ... شجو بفجر عين الماء في الحجر[١٩]

يمكن ان تفهم المعنى العام للأبيات ونتعرف على بعض جوانبها البلاغية ففي صدر البيت الاول نجد الشاعر يخاطب القمر ويناجيه ويحادثه ويحاوره كما يحاور الانسان شخصاآخر يقرب منه يقول:

لقد اصخت إلى نجواك من قمر وبت أدلج بين الوعي والنظرِ

فالشاعر هنا يتخيل على طريقة التجديد وكأن القمر شخص يناجيه ويحاوره وهذه المناجاة تمت ليلاً والليل له ايحاءاته الشعرية وظرفه الخاص لذلك ترى الشاعر يؤكد المعنى ((بت ادبج)).

كذلك اكد معنى الظلام ويجد نفسه متأرجحاً بين الوعي والنظر، من خلال رؤية القمر الذي يلوح لنا كاملاً ليلة تمامه وان الشاعر يريد ان يتكشف ما وراء القمر، وهو بهذا الاستكشاف السريع الذي عبر عنه باللمح، إذ تلقى دروساً نافعة من خلال هذه المناجاة عبر عنها بالملح، وحديث الشاعر مع القمر ممتع لأنه يستند إلى المحسوسات وهي السمع والبصر ولكن هنا البصر يبدو واضحاً السمع يردنا إلى النجوى التي ينامي بها أول البيت إذ يملأ عينيه من رؤية قرصه وإبداره ليلة الكمال بدون نقصان وهذه الصورة تجلت مخيلة كثير من البشر عندما يكون القمر في ليلة تمامه وتوحي إلى دلالات حسية ومعنوية كثيرة حتى في زماننا هذا ولكن الشاعر يجسد هذه المعاني والافكار بأسلوبه الشعري الدقيق لبيان قدرة خياله وعمق احساسه.

ويؤكد شاعرنا الاندلسي باستعارة تصريحية تبعية في (السمع) مع قرينة مانعة من ارادة المعنى الحقيقي وهي ((فرط)) و((قرط)) إذ يشبه حديث القمر ودرسه البليغ بالتقريط الذي يزيد الاذن جمالاً عند النساء، وفي البيت الرابع يحرص الشاعر الاستزادة ويتمنى ان يحاوره القمر وينطق فهذا الجمال والكمال يسوده الصمت ويريد ان ينطق القمر ليكتمل الجمالان جمال الصورة إلى جمال الموعظة وقد مضت دهور على القمر.. اليست كافية ان تجعله حكيماً وينطق بالحقيقة التي نبحث عنها. ولكن القمر لازال صامتاً ولا يستجيب لرجاء الشاعر وان في صمته موعظة ودرساً بليغاً وكأنه يشبه حالة الانسان في هذا التغيير النقص والكمال الارتفاع والانخفاض، ثم يعقد الشاعر حالة مشابهة كائنة عند البشر في اربعة مراتب منهما اثنان تدلان على الغفلة وهي (معرض وذاهل) واثنان تدلان على الصحوة (ملتفت ومدكر) وهكذا ينتهي المشهد بالبكاء الشديد الناجم عن حزن عميق والم ممض. كذلك نجد كثيراً من مفردات الجناس الناقص والجناس الاشتقاقي.

ومن الجناس الناقص نجده في مفردات (لمح ومُلح) أما الجناس الاشتقاقي فهو الذي تكون كلماته من أصل واحد. مثل (فرط وقرط) و(مضوا وقضوا) و (بكيت ويبكي).

أما علاقات التضاد فهي (الوعي والنظر، السمع والبصر، ناقص ومكتمل حوراً وكوراً، مرتق ومنحدر، معرض وملتفت، ذاهل ومدكر)

وفي قصيدة أخرى نجد استعارات اخرى يستخدمها ابن خفاجة عندما وصف فرسا اشهب إذ جعل الهلال سرجاً لهذا الجواد والثريا لجاماً له كما يظهر في هذه القصيدة.

لَستُ أدري أنَ قَيدَ لَيلةَ أَسري ... أو تَمطيتهُ غُداةَ قِتالِ
أَجَنوبُ تقتادُ لي من جُنيب ... أم شمال عنانها بشمالي
جَال في انجم من الحلي بيضٍ ... وَقميصً من الصباح مذالِ
اشهب اللون اثقلته حليً ... ضب فيهن وهو ملقى الجلال
فبدأ الصبح ملجماً بالثريا ... وجرى البرق مسرجاً بالهلال[٢٠]

هنا شبه الشاعر بياض حصانه بالصبح وشبه لجام الحصان بالثريا وهما استعارتان تصريحيتان ثم استعارت جزئية تعاضدت في تكوين صورة استعارية كلية لوصف حصان الشاعر الاشهب الذي يجري مسرعاً اسرع من ريح الشمال والجنوب وزيادة الوصف أن ريح الشمال انقادت له واسلمت عنائها طوعاً، ثم يأتي باستعارة في البيت الثالث في (انجم) وهي استعارة تصريحية أصلية بليغة إذ شبه الحلي الموجود على عنقه ورأسه بـ (انجم السماء) في لمعانها وجمالها كذلك الشطر الثاني جاء باستعارة تصريحية في لفظة (قميص) إذ شبه لون هذا الحصان بقميص ابيض الذي يشبه لون الصبح عندما ينكشف الدجى ويسحب سدوله فيبدو الصباح وكأنه قميص ابيض والمعنى: أن هذا الحصان جال (سار بسرعة) في حلي كالانجم بيضاء اللون وفي قميص مذال كالصبح الذي يكسو جميع النواحي.

ثم يأتي في البيت الاخير فيستخدم الشاعر استعارتان تصريحيتان اذ يشبه بياض هذا الحصان مقاربة في اللون لأجل البيان ثم يستعير لجريه وقوته وعزمه واستعارة

تصريحه اصلية في لفظة (البرق) اذ شبه سرعة حصانة بسرعة البرق، وهي من أجمل فنون الاستعارة في تمثيل حركة حصانه وسرعته وكذلك استعار لسرجه صفة أخرى إذ شبه سرج حصانه بالهلال فاستعار له من موجودات الطبيعة البرق في سرعة وميضه واختفائه وتقوس الهلال وانحنائه كسرج هذا الحصان الاشهب القوي.

ويأتي الشاعر بقصيدة أخرى ليصف لنا آلام مدينة (بلنسية) عندما طوقها العدو وقد تناجت نفوس المسلمين باسترجاعها وهذه المدينة قريبة من موطن الشاعر الذي ولد فيه وهي مدينة (شقر) لهذا نجد الشاعر يذكرها بقصيدة لامية طويلة بعد ان استرجعها المسلمون من ايدي الاسبان يقول فيها.

فغادر الطعنُ اجفان الجراح بهِ واشرق رمداً وصَيرَّ اطراف القنُا مقلا
الدم في خد الثرى خجلا واظلم النقع في جفن الوغى كحلا
واقشع الكفر قسراً عن بلنسية فإنجاب عنها حجاب كان منسدلا(٢١)

في البيت الاول استعارة تصريحية اصلية إذ استعار للجراح (اجفانا) ووصفها بانها قد اصابها الرمد من جراء الطعن ثم شبه اطراف الرماح (بالمقل) التي عند البشر الذي له مقلة اصلاً وهو تعبير في غاية البيان يصف هروب العدو عن مدينة بلنسية.

كذلك نجد استعارتين تصريحيتين في البيت الثاني في (خد الثرى) وفي (جفن الوغى) اذ رسم لنا صورة وجه الارض وكأنه خد قد أحمرَّ من الخجل بسبب اشراق الدم عليه، ثم صور لنا الوغى (الحرب) وكأن لها اجفانا قد كُحِل بالسواد والظلام من جراء حركة الخيل في الطرد والقتال واثارة الغبار فصار النقع (غبار المعركة) كالكحل في الجفون، ثم جاء في البيت الاخير بأستعارة مكنية أصلية والمتمثلة في لفظة (الكفر)، إذ شبه الشاعر (الكفر وكثرته) كالسحاب الثقيل المتراكم المهيمن على (بلنسية) إذ ينقشع قسراً بسبب الرياح القوية الهابة إليه ثم ما يلبث حتى ينقشع هذا السحاب بقوة المسلمين فشبههم كالريح القوية التي تسوق الغيوم إلى أماكن أخرى قسراً.

ثم يأتي الشاعر باستعارة تصريحية أخرى وهي (حجاب) إذ قال فانجاب عنها حجاب أي انكشف وزال عنها حجاب مظلم فاصبحت (بلنسية) واضحة المعالم معافاة بعد

زوال هذا الحجاب وهم جموع الكفر الذين هيمنوا على المدينة ردحاً من الزمن وهم الاسبان والفرنجة.

فترى من خلال هذا التعبير وهذه الاستعارات ان الشاعر استعمل أوصاف الطبيعة (خد الثرى) (جفن الوغى) والحجاب الذي عبر به عن الغيوم.

ومن ولع شاعرنا بالطبيعة وحبه لها يصور لنا هذا المشهد باختفاء عناصر الحياة الانسانية على المظهر الطبيعي. وهذا مبعثه كثرة تأمل الشاعر للطبيعة وقدرته على التخيل في ايام مجونه.

ألا رُبَ يـوم حثـت الكـأس خطـوةً فطـار وايـام السـرور قصـارُ
عثـرت بـذيل السـكر فيـه عشـيةً وللـريح فـي مـوج الخلـيج عثـارُ
وقـد فضـض النـوار كـل ربـاوةٍ وسـأل عليهـا للأصـيل نضـار[٢٢]

لقد استعار الشاعر لفظة (طار) لسرعة ذهاب ايام السرور وهي استعارة تصريحية تبعية اذ شبه سرعة زوال ايام السرور وعدم بقائها بالطيران واشتق من الطيران (طار) على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية فاصبحت ايام اللهو قصيرة كأنها خيال سارٍ، ثم عبر في البيت الثاني بأسلوب الكناية عن ترنحه من جراء السكر فقال (عثرت بذيل السكر) إذ اصبح للسكر هناك ذيل يجره وراءه ويشعر به الشاعر كما هو حال موج الخليج عندما تعبث به الريح وتصنع منه امواجاً متلاطمة فشبه تعثره بحال موج الخليج.

ثم نجد في البيت الاخير كناية أخرى وهي بياض راس أو وجه الرباوات من جراء تفتح ورد النوار فكأنها مفضضة (بيضاء كالفضة) ثم في الشطر الاخير استعارة تصريحية تبعية في (سال) إذ شبه انتشار ضوء الشمس عند الاصيل بالذهب السائل واشتق من السيلان (سأل) على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية واستعمال هذه الاستعارة فيه تصوير رائع لمنظر الضوء اللامع للشمس عندما يسطع على رؤوس الرباوات، ولا يمكن اعطاء مثل هذه الصورة والوصف إلا باستعمال هذا النوع من الاستعارات الرائعة.

٣- الصورة الكنائية:

إنَّ وظيفة الكناية لا تقل أهميةً عن وظيفة التشبيه والاستعارة وهي وسيلة من وسائل التصوير والتعبير عن المعاني بغير الألفاظ الموضوعة لها، وقد عَدَّ البلاغيون الكناية واسطة بين الحقيقة والمجاز،وهي كما يقول عنها عبدالقاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) (أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تالية وردفة في الوجود فيومئ به إليه، ويجعله دليلاً عليه)[٢٣].

وتقسم الكانية إلى ثلاث اقسام وهي الكناية عن صفة والكناية عن موصوف والكناية عن نسبة. ومن ذلك قول الشاعر في الكناية عن موصوف وهو الجبل كما في قوله:

واشرف طماح الذؤابة شامخ تنطق بالجوزاء ليلاً له خصرُ[٢٤]

(وطماح الذؤابة) أي بعيد الطرف كناية عن موصوف وهو الجبل وكذلك قوله في وصف امرأةً:

وبيضاء في صفراء تحمل نفحةً تنفسُ عنها المندل الرطب والجمرُ
خلعت رداء الصبر فيها علاقة ويحسن إلا في هوى مثلها الصبرُ
ولا غرو أن تروى بها عين ناظرٍ وباطنها ماء وظاهرها خمرُ[٢٥]

استخدم الشاعر الكناية في البيت الثاني (خلعت رداء الصبر) كناية عن ضجره وملله، أو كناية عن عدم تصبره عنها فجعل خلع أو ذهاب الصبر وكأنه رداء يخلع، وأكد ذلك المعنى بأن قال (ويحسن إلا) أي لا يحسن في مثلها الصبر.

وفي مجمل وصفه لامرأة ثم ينسب إليها هذه الصفات الجميلة من طيب الرائحة وما تحمله من نفحات طيبة فهي كناية عن نسبة لأن الشاعر قصد ان ينسب إليها صفات عطرة طيبة بطريقة الكناية عن نسبة وهو طيب عطرها الفواح.

وفي البيت الاخير كنى الشاعر بطريقة الصفة وهي كناية عن (باطنها ماء) أي انها بيضاء (وظاهرها خمر) أي ثوبها اصفر وهذين الصفتين هي من صفات الجمال عند

المرأة. فترى أن الشاعر استخدم اوصاف الطبيعة المعتادة لدى الناظرين فكنى عنها بهذه الكنايات اللطيفة بألوانها وانواعها الثلاث وهي الكناية عن صفة وعن موصوف وعن نسبة.

هوامش البحث

١. وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان، ابن خلكان، ١٤/١ بيروت دار الثقافة تحقيق احسان عباس.
٢. نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب، المقرّي ٢٣١/١ بيروت، دار الفكر تحقيق يوسف الشيخ محمد.
٣. ٣-نقد الشعر/ قدامة بن جعفر:٢٤.
٤. البيان والتبيين، الجاحظ: ٧٦/١.
٥. الحيوان، الجاحظ ١٣/٣.
٦. نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين، الفت كمال الروبي، ٨٣.
٧. الصورة في الشعر العربي حتى أواخر القرن الثاني الهجري، د.علي البطل، ٣٠.
٨. اساليب البيان / د.غازي يموت:٩.
٩. ديوان ابن خفاجة، ٨٢.
١٠. العمدة، ابن رشيق ٤٣٩/١.
١١. ديوانه: ٣٥١.
١٢. ديوانه: ١٢٣.
١٣. ديوانه:١٧٨.
١٤. ديوانه: ١٣٢.
١٥. ديوانه:٢٣٨.
١٦. ديوانه: ٢٣٨.
١٧. الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه: د.يحيى الجبوري، ١١٩.
١٨. دلائل الاعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ١٢٠.

١٩. ديوانه: ١٣٠.
٢٠. ديوانه: ٢٦٠.
٢١. ديوانه: ٢٠٨.
٢٢. ديوانه: ٢٨٥.
٢٣. دلائل الاعجاز، ١٠٥.
٢٤. ديوانه: ١٥٠.
٢٥. ديوانه: ٢٢٣.